بضاعتنا ردت إلينا

د. أيوب عبد الله على محمد

لقد أكد الفقيه الفرنسي الكبير الأستاذ (لامبير) في المؤتمر الدولي للقانون المقارن الذي انعقد بمدينة لاهاي سنة ١٩٣٢م أن: "نظرية الضرورة في الفقه الإسلامي تعبر بصورة أكيدة وشاملة عن فكرة يوجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف الطارئة، وفي القضاء الإنجليزي فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة تنفيذ الالتزام تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب، وفي القضاء الدستوري الأمريكي في نظرية الحوادث المفاجئة.

كما أن الأستاذ الفقيه الكبير السنهوري أخذ بهذا الرأي وأشار إليه في مقالته الرائعة التي دعا فيها إلى تنقيح القانون المدني المصري فقال: "إن نظرية الظروف الطارئة عادلة ويمكن للمشرع المصري في تقنينه الجديد أن يأخذ بها استنادًا إلى نظرية الضرورة في الشريعة الإسلامية وهي نظرية فسيحة المدى، خصبة النتائج، تتسع لنظرية الظروف الطارئة ... إن نظرية الضرورة من النظريات الإسلامية، وهي تتماشى مع أحدث النظريات في هذا الموضوع.

باستقراء مقالة الفقيه (لامبير) لمؤتمر لاهاي ومقالة الدكتور السنهوري والتي أخذ بها المشرع المصري الذي بيّن في المذكرة الإيضاحية له أنه أخذ بهذه النظرية استنادًا لنظرية الضرورة في الشريعة الإسلامية.

إذًا ما نظرية الضرورة؟

إن أبلغ من عبر عن النظرية الإمام الغزالي الذي يرى أن مقصود الشرع أن يحفظ للناس – دينهم ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يضمن حفظ هذه الأصول الخمسة، مصلحة واقعة في رتبة الضرورات، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة.

من هذا الأصل الذي تقوم عليه نظرية الضرورة تفرعت قواعد أساسية كانت مصدرًا لكثير من الأحكام نذكر منها:

- قاعدة لا ضرر ولا ضرار .
- قاعدة المشقة تجلب التيسير .
- قاعدة الأمر إذا ضاق اتسع.
- قاعدة الحاجة تنزل منزلة الضرورة عامة كانت أو خاصة.
- قاعدة الضرورات تبيح المحظورات.

وأجد نفسي أمام نتيجة مهمة جدًا أفصلها فيما يلي:

- أن النظم الوضعية تقتبس من التشريع الإسلامي بأعلى مستوياتها (مؤتمر لاهاي) ومنهم من يعترف بذلك ومنهم من يسكت عنه.
- أن الفقهاء المسلمين والمشرعين المسلمين، بل والقضاة ينظرون إلى ما عند الغرب من نظريات ويعلقون فكرهم ونظرهم بعيدًا متجاهلين ما عندهم من كنوز والغرب في ذاته منشغلٌ بالتنقيب والاستنباط منها، لأجل تطبيقها لكونها أكثر عدلاً.
- أننا نفرح ونسعد كثيرًا لبضاعتنا التي أخذت منا – نظرية الضرورة– ثم ردت إلينا– نظرية الظروف الطارئة– ومن المفترض أننا أولى بها ابتداءً .
- إن المشرع المسلم المعاصر لا تقنعه الأصول والفروع التي خرجها فقهاء المسلمين في عصر النهضة والتي وصلوا فيها لدرجة ظهور علم بأكمله هو (فقه الضرورة) ولكنه يقتنع وبسرعة شديدة ودون جدل إذا ما جاء استنباط الحكم من الغربيين – كلامبير – ويطرب كثيرٌ من كبار فقهائنا عندما يسترشدون بما جاء به أولئك الغربيون وهذا لسان حالنا في كل ضروب المعرفة والحياة شاهدة علينا بذلك.
- من ناحية تاريخية إن عرض لامبير للنظرية والذي اعتبره العلامة الدكتور السنهوري وغيره اعترافًا، هو طمس للحقائق التأريخية ودليل ذلك فيما يلي:
- قال لامبير: "نظرية الضرورة في الفقه الإسلامي تعبر بصورة أكيدة وشاملة عن فكرة يوجد أساسها في القانون الدولي العام في نظرية الظروف المتغيرة...،، إن هذه الصياغة فيها قلب للحقائق لكون التشريع الإسلامي عمره أربع عشرة ألف سنة ونيف، والقانون الدولي العام لا يتجاوز عمره ثلاثة قرون إذا أرخنا له بقيام الثورة الفرنسية .

هل الأساس يوجد في السابق أم يوجد في اللاحق ؟ أرى أن الصياغة الصحيحة لكلامه ينبغي أن تكون كالآتي: (إن نظرية الظروف الطارئة في القانون الدولي العام مأخوذة بصورة أكيدة وشاملة من الشريعة الإسلامية وتجد لها أساسًا في نظريةً الضرورة في الفقه الإسلامي) .

- كذلك قال: "... يوجد لها أساس في القضاء الإداري الفرنسي،، . وهو قول مدحوض بأن القانون الإداري من خصائصه أنه قانون حديث النشأة لا يتجاوز عمره قرنين، أي بعد الانتدابات الأنجلو أمريكية والفرنسية للدول الإسلامية في شمال أفريقيا، وغربها ووسطها، وشرقها، وفي آسيا، واطلاع مفكريها كلامبير على التشريع الإسلامي لدرجة الكشف عن نظريات غفل عنها الفقهاء المسلمون المعاصرون، ولا سيما أن نظرية الظروف الطارئة برمتها أول من أقرها هو القضاء الإداري في القوانين المعاصرة، ومنه انتقلت إلى فروع القانون الخاص كما أسلفنا . ثم انتقلت إلى إنجلترا ومنها إلى أمريكا باعتبارهما ممثلين للقانون الأنجلو أمريكي، في الوقت الذي تمثل فيه فرنسا الدول اللاتينية.

إذًا كان ينبغي أن تكون الصياغة كالآتي: (ثم انتقلت منه – أي الفقه الإسلامي – للقضاء الإداري ممثلاً في نظرية الظروف الطارئة، وتعدلت بموجبها مواقف القضاء الإنجليزي، فيما أدخله من المرونة على نظرية استحالة تنفيذ الالتزام، تحت ضغط الظروف الاقتصادية التي نشأت بسبب الحرب، وأثرت في القضاء الدستوري الأمريكي في نظرية الحوادث المفاجئة) .

وهكذا تتجلى الحقائق المقلوبة وتوضع الأمور في نصابها، لا تهكمًا ! ولكن عند مراعاة عامل الزمن وعند وضع حساب التأريخ في الاعتبار بالنظر لمن كان سابقًا فيكون هو الأساس، ومن كان لاحقًا فيكون هو التابع والآخذ لا المعطي . هي بضاعتنا وردت إلينا.

والله ولي التوفيق

الأدب النبوي

أ. جميلة عمر

عرف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين الورى بأنه أوفر حظًا من كل رسل الله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، وأنه أنقى سيرة وأصفى سريرة ولم تتشرب سيرته بخلط مما يصنعه البشر من أساطير وخرافات، ذلك أن حجته في الدنيا هي القرآن، هذه الوثيقة الخالدة والتي حفظها الله تعالى، وأوصلها لنا النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يضع حرف وقد وجد القرآن عهدًا من الله تعالى أن يظل محفوظًا أبد الدهر لقوله تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) الحجر٩

وعلى ضوء هذه الحقائق النيرة، ومن صدق هذا الحضور النبوي، نستمد ما سماه الدارسون (الأدب النبوي) ومنه (المديح النبوي) وهو سلوك وقيم وشمائل محمدية وجدت منذ نشأته وترعرعه بمكة ثم مبعثه وهو يدعو إلى الإسلام بعد هجرته الخالدة من مكة إلى يثرب والقبائل حوله في قيل وقال، وفي توافق واختلاف، وفي رضا عنه وهجر له، والرسالة في حاجة إلى سندين وأكثر، من تلك الأسانيد القلم أو القصيدة المادحة والشعر، والشاعر في تلك الحال كان لسان القبيلة الناطق دفاعًا عنها، ومن تلك الأجواء برز إلى حيز الوجود ما يمكن أن يقال عنه إنه شاعر الإسلام، تميزًا له عن الشعراء الآخرين، كما برزت القصيدة النبوية ذات الصيغة التي رضي عنها النبي صلى اللهعليه وسلم وأجازها بعد تأمل وإعادة قراءة باعتبارها قصيدة تحمل في طياتها النبع المحمدي والخلق الإسلامي والدعوة الحقة والارتفاع عن صغائر القبيلة وعن ضيق الأفق ومحدودية الروية، بل والخروج من بؤرة الذاتية إلى بوتقة الموضوعية ثم الانسلال من المحلية إلى آفاق العالمية.

وإن كانت أشعار شاعر النبي صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت الأنصاري قد سار بعض منها على ما كان عليه الحال أعقاب الجاهلية وذاك ميراث بشري يصعب الانفكاك من مؤثراته، إن كان الأمر كذلك فإن الدعوة الإسلامية علمت حسانًا وغير حسان أن أمرها لهو أعظم من ذلك وأن الشعر–في كل حال– ترجمة صادقة لما يؤول إليه الأمر. وكان حقه في المسيرة ذاتها الشاعر كعب بن زهير في لاميته المشهورة المسماة بالبردة.

من كنوز المعرفة

د. الطيب محمود

الشعر والشعراء

قال الخليل بن أحمد رحمه الله، الشعراء أمراء الكلام يصرفونه أنى شاؤوا وفي كتاب البرهان في علوم القرآن للزركشي قال ابن عباس:(الشعر ديوان العرب فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله بلغة العرب رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه).

وفي صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم: قال: (أصدق كلمة قالها شاعر، ألا كل شيء ما خلا الله باطل) أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم والقائل هو لبيد بن ربيعة رضي الله عنه.

قال الشاعر:

فلو كانت الدنيا جزاء لمحسن××إذًا لم يكن فيها معاش لظالم

لقد جاع فيها الأنبياء كرامة×× وقد شبعت فيها بطون البهائم

فضل (لا حول ولا قوة إلا بالله)

أ. عواطف عبد الكريم أحمد

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « يا عبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة هي من كنوز الجنة: لا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه البخاري، ومسلم، واللفظ للبخاري.

في معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) وفضلها قال النووي رحمه الله: هي كلمة استسلام وتفويض وأن العبد لا يملك من أمره شيئًا وليس له حيلة في دفع شر ولا قوة في جلب خير إلا بإرادة الله تعالى. وجاء في الأثر أن معنى (لا حول ولا قوة إلا بالله) أي لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله إلا بعون الله.

كما قال صلى الله عليه وسلم: « استكثروا من الباقيات الصالحات قيل وما هن يا رسول الله قال: الملة قيل: ما هي؟ قال: التكبير والتهليل والتسبيح والتحميد ولا حول ولا قوة إلا بالله» أخرجه أحمد، والحاكم، وابن حبان، وصححه الذهبي.

وقال أيضًا لا حول ولا قوة إلا بالله دواء من تسع وتسعين داء أيسرها الهم» أخرجه الطبراني والبيهقي والحاكم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (ألا أعلمك – أو قال – ألا أدلك على كلمة من تحت العرش من كنز الجنة ؟ تقول : (لا حول ولا قوة إلا بالله) ، فيقول الله عز وجل : أسلم عبدي واستسلم رواه الحاكم بسند صحيح

. كرم الله عز وجل وفضله حين يعطي الثواب الكبير على العمل القليل وأن الحبيب صلى الله عليه وسلم كان رحيمًا بأهله ولذلك كان حريصًا على أن يدلهم على أبواب الخير ويبيّن لهم كل ما فيه نفع يعود عليهم في الدنيا والآخرة.

انتبهـــوا

أ.د. محمد موسى البر

ورحل عالم اللغة العربية

إن اللغة العربية تعد عندنا نحن المسلمين أجلّ لغة وذلك لأنها حفظت أجلّ كتاب القرآن الكريم وحفظت هذه اللغة كذلك السنة النبوية. حفظها الله من الضياع وحفظها من حفظ القرآن والسنة وقال تعالى في ذلك(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)الحجر٩ وسخر لها علماء أجلاء من لدن الخليل وسيبويه إلى عصرنا الحالي.وقد أراد المستشرقون وأراد الاستعمار وأعوانه أن يغدروا باللغة العربية حتى يكون المسلم أعجميًا لا يفهم القرآن والسنة والتراث . وسخر الله لها شعراء تغنوا بها شعرًا ومجدوها وحببوها لجماهير المسلمين ضد حملات الاستعمار الذي كان يريد أن تنزوي ولكن هيهات لهم ذلك، ومن أساطير اللغة العربية في السودان أ.د. عبد الله بريمة ابن الفاشر الذي دلف إلى القاهرة وتعلم اللغة العربية وآدابها وعاصر وتتلمذ على كبار العلماء في أرض الكنانة، وكان تلميذًا لعالم اللغة المعروف د. عباس محمود العقاد، ذلك العالم العلم. وكان أ.د. عبد الله بريمة يفوق كل من حوله من العلماء والطلاب. وتشرب العلم وعاد إلى السودان ينشره غضًا ويبذله دون منّ أو أذى ، وشهدت له ساحات العلم في الجامعات ومنابر المنتديات، كان أ.د. بريمة عميدًا لكلية اللغة العربية بجامعة القرآن الكريم ومشرفًا على مجلة الجامعة وأستاذًا في الدراسات العليا ومشرفًا على رسائل الماجستير والدكتوراة. كان عالمًا له أخلاق العلماء وأدبهم ومن تواضعه كان يجلس مع طلابه ويناقشهم في مجاله الذي برز فيه اللغة والأدب، وكان لا يهتم أين يجلس، فكثيرًا ما تراه مع طالب يجلس في ظلال الأشجار وفي أي بقعة في الجامعة وستشهد له هذه البقاع يوم القيامة بأنه خدم لغة القرآن الكريم، رحل أ.د. عبد الله بريمة عن هذه الفانية وترك فراغًا عز أن يملأ لأن فقده كما قال الشاعر:

ليس فقده فقد واحد
ولكن بنيان قوم تهدم

العلماء من أمثال أ.د. عبد الله بريمة لهم حق على الدولة وعل الجامعة (جامعة القرآن الكريم) وقد أحسنت الجامعة ممثلة في كلية الدراسات العليا أن كرمته في معايدة «عيد الأضحى « لهذا العام وقبل وفاته بأيام قصيرة. الذي قصدته في هذا المقال هو أن ألفت النظر لتقدير العلماء والأستاذة والاهتمام بهم ذلك لأن العلماء منارات للأجيال وهم الذين يحفظون التراث وهم القادة الحقيقيون للأمة العربية والإسلامية، والحزن ضرب أروقة جامعة القرآن الكريم وهي تفقد العالم الذي يعد من أساطير العلماء في مجال اللغة العربية، رحم الله أ.د. عبد الله بريمة عالم اللغة العربية الذي رحل، وكان لا بد من كتابة هذا المقال في حقه بهذا العنوان، ورحل عالم اللغة العربية. (إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ).